مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أَرْكَانُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

فَإِنَّ التَّدَبُّرَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُ أَرْكَانٌ، هِيَ:

١- التَّفَكُّرُ وَالتَّفَهُّمُ لِمَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ، وَالنَّظَرُ فِي عَاقِبَةِ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَالِاعْتِبَارُ وَالِاتِّعَاظُ بِذَلِكَ، بِحَيْثُ يُتَوَصَّلُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِ الْمُشَاهَدِ مِمَّا لَيْسَ بِمُشَاهَدٍ؛ فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ، وَالتَّصْدِيقُ، وَالْمَعْرِفَةُ، وَالتَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

٢- وَمِنْ أَرْكَانِهِ: حُصُولُ أَثَرِ ذَلِكَ الْإِيمَانِ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ، وَبِدُونِ ذَلِكَ لَنْ يَحْصُلَ التَّدَبُّرُ الْأَمْثَلُ لِلْقُرْآنِ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ فَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ التَّدَبُّرَ الْأَمْثَلَ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْمُسْلِمِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**».

وَرَوَاهُ أَبُو الْفَضْلِ الرَّازِيُّ فِي كِتَابِهِ «فَضَائِلُ الْقُرْآنِ»، وَزَادَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، طَيِّبَةِ الطَّعْمِ**». فَزَادَ لَفْظَةَ: «**وَيَعْمَلُ بِهِ**». وَهِيَ فِي مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، عَنِ الْقَاسِمِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ، كَمَثَلِ رَيْحَانَةٍ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلَا طَعْمَ لَهَا، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْمَلُ بِالْقُرْآنِ وَلَا يَقْرَؤُهُ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا خَبِيثٌ وَرِيحُهَا خَبِيثٌ».

وَالتَّدَبُّرُ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ النَّظَرُ إِلَىٰ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابُ هِدَايَةٍ وَإِعْجَازٍ، وَقَدْ تَضَمَّنَ مَا فِيهِ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

www.menhag-un.com

المَقَاصِدُ العُظْمَى لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ يَدُورُ حَوْلَ ثَلَاثِ قَضَايَا أَسَاسٍ فِيهِ، وَهِيَ:

أَوَّلًا: تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ، وَأُمُورُ الْعَقِيدَةِ.

ثَانِيًا: تَقْرِيرُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

ثَالِثًا: ذِكْرُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّابِقِينَ، وَأَخْبَارِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَحْوَالِهِمْ مَعَ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷺ.

وَالْمُسْلِمُ فِي قِرَاءَتِهِ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يَتَفَهَّمُ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ الْكَبِيرَةَ، وَيَسْتَفِيدُ مِمَّا فِيهَا نَاظِرًا، وَمُتَفَكِّرًا، وَمُتَّعِظًا، وَهَذَا سِرُّ خَتْمِ الْكَثِيرِ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا يُفِيدُ طَلَبَ التَّفَكُّرِ، وَالرُّشْدِ، وَالْعِبْرَةِ، وَالْعِظَةِ، وَالرُّجُوعِ إِلَىٰ الصَّوَابِ.

*** فَمِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ، وَبَيَانِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ:**

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى

ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢١].

*** وَفِي أُمُورِ الْعَقِيدَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا:**

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

*** وَفِي قَصَصِ السَّابِقِينَ:**

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

* وَفِي أَخْبَارِ مَنْ كَانَ وَقْتَ الدَّعْوَةِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦].

وَعَمَّمَ فِي الْقُرْآنِ جَمِيعِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨].

www.menhaj-un.com

وَيُلَاحَظُ أَنَّ بَعْضَ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ تَأْتِي مُمْتَزِجَةً، فَقَدْ تَأْتِي الْقِصَّةُ مُتَضَمِّنَةً بَيَانَ أَمْرِ الْعَقِيدَةِ، وَتُشِيرُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ إِلَىٰ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ، كَمَا فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي يُورِدُ الْفُقَهَاءُ فِيهَا مَا يُسَمِّيهِ الْأُصُولِيُّونَ: (شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا)، فَهُوَ شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَأْتِ فِي شَرْعِنَا مَا يُخَالِفُهُ؛ لِعُمُومِ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فَبِرِعَايَةِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الثَّلَاثَةِ -وَهِيَ مَقَاصِدُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ- عِنْدَ تِلَاوَةِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ؛ يَحْدُثُ التَّدَبُّرُ عَلَىٰ النَّحْوِ الْمَنْشُودِ.

جامعة منهاج النبوة www.menhag-un.com

الْأُصُولُ الْمَنْهَجِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ

وَهُنَالِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أُصُولٌ مَنْهَجِيَّةٌ:

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: الِالْتِزَامُ بِالْحَقِيقَةِ فِي التَّفْسِيرِ؛ فَالْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْمُتَبَادَرَةُ إِلَىٰ الذِّهْنِ، وَلِأَنَّهَا مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ بِدَايَةً، وَأَيُّ خُرُوجٍ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُعَدُّ اسْتِثْنَاءً، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَرَائِنَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَنْ قَسَّمَ الْكَلَامَ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ، مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ هُوَ الْحَقِيقَةُ، وَالْقُرْآنُ الكَرِيمُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَىٰ الْمَجَازِ، إِلَّا لِمَانِعٍ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ».

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَحَمْلُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَلَامِ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ أَوْلَىٰ بِذَوِي الدِّينِ وَالْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ يَقُصُّ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عُلُوًّا كَبِيرًا-».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ:

عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ عِدَّةَ أَقْوَالٍ فِي مَعْنَىٰ الْهُبُوطِ، وَمِنْهَا: أَنَّ هُبُوطَ مَا هَبَطَ مِنْهَا -أَيْ: مِنَ الْحِجَارَةِ- مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَفَيُّؤُ ظِلَالِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: ذَلِكَ الْجَبَلُ الَّذِي صَارَ دَكًّا إِذْ تَجَلَّىٰ لَهُ رَبُّهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ كَانَ مِنْهُ وَيَكُونُ؛ لِأَنَّ اللهَ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أَعْطَىٰ بَعْضَ الْحِجَارَةِ الْمَعْرِفَةَ وَالْفَهْمَ؛ فَعَقَلَ طَاعَةَ اللهِ؛ فَأَطَاعَهُ، كَالَّذِي رُوِيَ عَنِ الْجِذْعِ الَّذِي كَانَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ، فَلَمَّا تَحَوَّلَ عَنِ الْجِذْعِ حَنَّ إِلَيْهِ.

وَكَالَّذِي رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**».

ثُمَّ قَالَ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ بَعِيدَاتِ الْمَعْنَىٰ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ الْآيَةُ مِنَ التَّأْوِيلِ؛ فَإِنَّ تَأْوِيلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنْ عُلَمَاءِ سَلَفِ الْأُمَّةِ بِخِلَافِهَا؛ فَلِذَلِكَ لَمْ نَسْتَجِزْ صَرْفَ تَأْوِيلِ الْآيَةِ إِلَىٰ مَعْنًىٰ مِنْهَا.

وَمِثَالُ تَأْوِيلِ السَّلَفِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ:

مَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ حَجَرٍ يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْمَاءُ، أَوْ يَشَّقَّقُ عَنْ مَاءٍ، أَوْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ؛ فَهُوَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ، نَزَلَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ».

فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: الْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَحَتَّىٰ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْكَلَامَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ؛ قَالُوا: إِنَّهُ لَا يُصْرَفُ الْكَلَامُ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَعَنْ حَقِيقَتِهِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا إِلَىٰ مَجَازِهِ إِلَّا بِقَرِينَةٍ.

فَالْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ: الْحَقِيقَةُ لَا الْمَجَازُ، فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ.

الْأَصْلُ الثَّانِي: الِالْتِزَامُ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ.

وَالْمُرَادُ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ: إِجْرَاءُ نُصُوصِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا مِنَ الْمَعَانِي.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي «الْإِبَانَةِ»: «الْقُرْآنُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُزِيلَهُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا لِحُجَّةٍ، وَإِلَّا فَهُوَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ».

وَقَالَ أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ: «وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابَةُ يَتَعَلَّقُونَ فِي تَفَاصِيلِ الشَّرْعِ بِظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

يُؤَكِّدُ ذَلِكَ الشَّوْكَانِيُّ بِقَوْلِهِ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الظَّاهِرَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ بِدَلِيلِ إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِظَوَاهِرِ الْأَلْفَاظِ».

وَقَرَّرَ الشِّنْقِيطِيُّ ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ -وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَامَّةُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْ ظَاهِرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، حَتَّىٰ يَقُومَ دَلِيلٌ صَحِيحٌ شَرْعِيٌّ صَارِفٌ عَنِ الظَّاهِرِ إِلَىٰ الْمُحْتَمَلِ الْمَرْجُوحِ».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وَرَدَتْ أَقْوَالٌ عَنِ السَّلَفِ تُفَسِّرُ الْآيَةَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا:

قَالَ عِكْرِمَةُ: «لَا يَعِيبَنَّ أَحَدَكُمْ دَابَّتَهُ وَلَا ثَوْبَهُ؛ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «الشَّجَرَةُ تُسَبِّحُ، وَالْأُسْطُوَانَةُ تُسَبِّحُ».

وَوَرَدَتْ بَعْضُ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ غَيْرِ ظَاهِرِهَا؛ مِثْلُ: إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ يُسَبِّحُ، وَمَا لَا رُوحَ فِيهِ فَلَا يُسَبِّحُ.

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا التَّسْبِيحَ تَجَوُّزٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْدُو فِيهِ صَنْعَةُ الصَّانِعِ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ، فَتَدْعُو رُؤْيَةُ ذَلِكَ إِلَىٰ التَّسْبِيحِ مِنَ الْمُعْتَبِرِ.

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ خَالَفَتْ ظَاهِرَ الْآيَةِ؛ فَظَاهِرُ الْآيَةِ يُثْبِتُ التَّسْبِيحَ حَقِيقَةً لِكُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ: نَاطِقَةٍ أَوْ غَيْرِ نَاطِقَةٍ، مِنْ حَيَوَانَاتٍ أَوْ جَمَادَاتٍ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: «وَنِسْبَةُ التَّسْبِيحِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، مِنْ مَلَكٍ وَإِنْسٍ وَجِنٍّ؛ حَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ النُّطْقِ بِالتَّسْبِيحِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ مَا لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُمُوَّ يُحْدِثُ اللهُ لَهُ نُطْقًا، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ».

وَكَذَا قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّحْقِيقُ: أَنَّ تَسْبِيحَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَسْبِيحٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَجْعَلُ لَهَا إِدْرَاكَاتٍ تُسَبِّحُ بِهَا».

فَحَمْلُ الْكَلَامِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ؛ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وَعَلَيْهِ إِجْمَاعُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

وَأَمَّا مَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ صَرْفِ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، بِحُجَّةِ تَنْزِيهِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَقُلْ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ؛ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ كَثِيرٍ

مِنَ الْبَلِيَّاتِ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، حَتَّىٰ تَفَرَّقُوا، وَتَمَزَّقُوا، وَصَارُوا شِيَعًا، وَالْأَصْلُ أَنْ يُحْمَلَ الْكَلَامُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ.

الْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْعِنَايَةُ بِالسِّيَاقِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَهَذَا الْأَصْلُ مِنَ الْأُصُولِ الْمَنْهَجِيَّةِ الْمُهِمَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ، وَإِدْخَالَ الْكَلَامِ فِي مَعَانِي مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، مُؤَثِّرٌ كَبِيرٌ فِي فَهْمِ الْآيَةِ، وَإِزَالَةِ اللَّبْسِ عَنْهَا، وَتَفْصِيلِ الْمُجْمَلِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ الدَّلَالَةَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ سِيَاقِهِ، وَمَا يَحُفُّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْحَالِيَّةِ».

وَشَرَحَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- أَثَرَ السِّيَاقِ فِي فَهْمِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «السِّيَاقُ يُرْشِدُ إِلَىٰ تَبْيِينِ الْمُجْمَلِ، وَتَعْيِينِ الْمُحْتَمَلِ، وَالْقَطْعِ بِعَدَمِ احْتِمَالِ غَيْرِ الْمُرَادِ، وَتَخْصِيصِ الْعَامِّ، وَتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ، وَتَنَوُّعِ الدَّلَالَةِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْقَرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، فَمَنْ أَهْمَلَهُ؛ غَلَطَ فِي نَظَرِه، وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَتِه، فَانْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كَيْفَ تَجِدُ سِيَاقَهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الذَّلِيلُ الْحَقِيرُ».

وَحَتَّىٰ فَهْمُ الْمُفْرَدَةِ اللُّغَوِيَّةِ؛ يَلْزَمُ فَهْمُهَا فِي ضَوْءِ السِّيَاقِ:

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: «وَطَرِيقُ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ فَهْمِهِ: النَّظَرُ إِلَىٰ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَمَدْلُولَاتِهَا، وَاسْتِعْمَالِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَهَذَا يَعْتَنِي بِهِ الرَّاغِبُ

كَثِيرًا فِي كِتَابِه «الْمُفْرَدَاتِ»، فَيَذْكُرُ قَيْدًا زَائِدًا عَلَىٰ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهُ اقْتَنَصَهُ مِنَ السِّيَاقِ».

وَيُؤَكِّدُ تَمَيُّزَ الرَّاغِبِ فِي «مُفْرَدَاتِهِ» بِسَبَبِ اسْتِعَانَتِهِ بِالسِّيَاقِ فِي فَهْمِ الْغَرِيبِ، فَيَقُول: «وَمِنْ أَحْسَنِهَا: كِتَابُ «الْمُفْرَدَاتِ» لِلرَّاغِبِ، وَهُوَ يَتَصَيَّدُ مِنَ السِّيَاقِ؛ لِأَنَّ مَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ خَاصَّةٌ».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنِي بِالنِّعْمَةِ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَهَا، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِهَا، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ النَّبِيُّ ﷺ، عَرَفُوا نُبُوَّتَهُ، ثُمَّ جَحَدُوهَا وَكَذَّبُوهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مَا عَدَّدَ اللهُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ النِّعَمِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنْكَارُهُمْ إِيَّاهَا: أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: لَوْلَا فُلَانٌ مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلَا فُلَانٌ مَا أَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ رَزَقَكُمْ؟ أَقَرُّوا بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي رَزَقَهُمْ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: رُزِقْنَا ذَلِكَ بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا.

وَأَوْلَىٰ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، وَأَشْبَهُهَا بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: عَنَىٰ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾: النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، دَاعِيًا إِلَىٰ مَا بَعَثَهُ بِدُعَائِهِمْ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بَيْنَ آيَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَمَّا بُعِثَ بِهِ، فَأَوْلَىٰ بِمَا بَيْنَهُمَا: أَنْ يَكُونَ فِي مَعْنَىٰ مَا قَبْلَهُ، وَفِي مَعْنَىٰ مَا بَعْدَهُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعْنًى يَدُلُّ عَلَىٰ انْصِرَافِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَعَمَّا بَعْدَهُ.

فَالَّذِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٢]، وَمَا بَعْدَهُ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ [النحل: ٨٤]، وَهُوَ رَسُولُهَا.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ بِكَ، ثُمَّ يُنْكِرُونَكَ، وَيَجْحَدُونَ نُبُوَّتَكَ، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، يَقُولُ: وَأَكْثَرُ قَوْمِكَ الْجَاحِدُونَ نُبُوَّتَكَ، لَا الْمُقِرُّونَ لَهَا».

فَانْظُرْ كَيْفَ أَدَّىٰ النَّظَرُ فِي السِّيَاقِ إِلَىٰ الْحُصُولِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ الْمَطْلُوبِ، كَمَا اسْتَظْهَرَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ هَذَا عِنْدَ التَّدَبُّرِ وَالنَّظَرِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ التَّدَبُّرَ هُوَ: التَّفَكُّرُ الشَّامِلُ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَىٰ أَوَاخِرِ دَلَالَاتِ الْكَلِمِ وَمَرَامِيهِ الْبَعِيدَةِ.

فَمَعْنَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: هُوَ التَّفَكُّرُ وَالتَّأَمُّلُ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ؛ مِنْ أَجْلِ فَهْمِهِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهِ، وَحِكَمِهِ، وَالْمُرَادِ مِنْهُ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

عَلَامَاتُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَأَمَّا عَلَامَاتُ التَّدَبُّرِ: فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، عَلَامَاتٍ وَصِفَاتٍ تَصِفُ حَقِيقَةَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَتُوَضِّحُهُ بِجَلَاءٍ، مِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

*** يَتَحَصَّلُ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ سَبْعُ عَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ وُقُوعِ التَّدَبُّرِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَهَذِهِ الْعَلَامَاتُ هِيَ:**

١- اجْتِمَاعُ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ حِينَ الْقِرَاءَةِ، وَدَلِيلُهُ: التَّوَقُّفُ تَعَجُّبًا وَتَعْظِيمًا.

٢- **وَمِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ**: الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ.

٣- **وَمِنْهَا**: زِيَادَةُ الْخُشُوعِ.

٤- **وَمِنْهَا**: زِيَادَةُ الْإِيمَانِ، وَدَلِيلُهُ: التَّكْرَارُ الْعَفْوِيُّ لِلْآيَاتِ.

٥- **وَمِنْهَا**: الْفَرَحُ وَالِاسْتِبْشَارُ.

٦- **وَمِنْهَا**: الْقُشْعَرِيرَةُ خَوْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ غَلَبَةُ الرَّجَاءِ وَالسَّكِينَةِ.

٧- **وَآخِرُ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ**: السُّجُودُ تَعْظِيمًا للهِ ﷻ.

فَمَنْ وَجَدَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرَ؛ فَقَدْ وَصَلَ إِلَىٰ حَالَةِ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يُحَصِّلْ أَيًّا مِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ؛ فَهُوَ مَحْرُومٌ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ كُنُوزِهِ وَذَخَائِرِهِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ؛ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَعَتَ الْعُلَمَاءَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فَمَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ؛ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قَالَتْ**: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ».

وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيْكَ وَلَا يَكُونُ لَكَ نَصِيبٌ وَرِزْقٌ مِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ؛ فَقَدْ فَاتَكَ فِيهِ رِبْحٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ يَوْمٌ حَرِيٌّ أَنْ يُبْكَىٰ عَلَىٰ خَسَارَتِهِ.

www.menhag-un.com

وَهْمُ اعْتِقَادِ الْبَعْضِ صُعُوبَةَ فَهْمِ الْقُرْآنِ!!

وَمِمَّا يَصْرِفُ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَتَذَكُّرِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ: اعْتِقَادُهُمْ صُعُوبَةَ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا خَطَأٌ فِي مَفْهُومِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَانْصِرَافٌ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُنْزِلَ، فَالْقُرْآنُ كِتَابُ تَرْبِيَةٍ وَتَعْلِيمٍ، وَكِتَابُ هِدَايَةٍ وَبَصَائِرَ لِكُلِّ النَّاسِ، كِتَابُ هُدًى وَرَحْمَةٍ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، كِتَابٌ قَدْ يَسَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: تَنْفِيرُهُ عِبَادَ اللهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْهُدَىٰ وَاقِعٌ عِنْدَ التَّدَبُّرِ، فَيَقُولُ: هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ؛ حَتَّىٰ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: أَنَا لَا أَتَكَلَّمُ فِي الْقُرْآنِ تَوَرُّعًا!!».

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَمِنْ حَيْثُ كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا، أَفْحَمَ الْفُصَحَاءَ، وَأَعْجَزَ الْبُلَغَاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ فَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَارِيًا عَلَىٰ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، مُيَسَّرًا لِلْفَهْمِ فِيهِ عَنِ اللهِ؛ مَا أَمَرَ بِهِ، وَنَهَىٰ عَنْهُ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ قَالَ: إِنَّ لِلْقُرْآنِ تَأْوِيلًا لَا نَفْهَمُهُ، وَلَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا نَتْلُوهُ مُتَعَبِّدِينَ بِأَلْفَاظِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مِنْهُ حَرَجٌ».

وَقَالَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ يَفْهَمُ مَعْنَاهُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ ﴿مَا﴾: كَلِمَةُ شَرْطٍ، وَ﴿تُقَدِّمُوا﴾: مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ شَرْطُهَا، وَ﴿تَجِدُوهُ﴾: مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ جَزَاؤُهَا.

فَهُوَ يَفْهَمُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، مَعْنَىٰ الآيَةِ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

قَالَ: فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي خَصَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِالْمَنْعِ عَنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَفَهْمِ تَرَاكِيبِهَا وَمَبَانِيهَا؛ حَتَّىٰ جُعِلَتْ كَالْمَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا تَرْدِيدُ أَلْفَاظِهَا وَحُرُوفِهَا».

الصَّحِيحُ وَالْحَقُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْظَمُهُ وَاضِحٌ، وَبَيِّنٌ، وَظَاهِرٌ لِكُلِّ النَّاسِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

وَمُعْظَمُ الْقُرْآنِ مِنَ الْقِسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ؛ فَمُعْظَمُ الْقُرْآنِ مِنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ.

إِنَّ عَدَدَ آيَاتِ الْأَحْكَامِ فِي الْقُرْآنِ: خَمْسُ مِئَةِ آيَةٍ، وَعَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ: سِتٌّ وَثَلَاثُونَ وَمِئَتَانِ وَسِتَّةُ آلَافِ آيَةٍ.

إِنَّ فَهْمَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْعِلْمِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ لَا يُشْتَرَطُ لَهُ فَهْمُ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ؛ مِنْ نَحْوِيَّةٍ، وَبَلَاغِيَّةٍ، وَأُصُولِيَّةٍ، وَفِقْهِيَّةٍ.

فَمُعْظَمُ الْقُرْآنِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ، يُدْرِكُ مَعْنَاهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْعَالِمُ وَالْأُمِّيُّ؛ فَحِينَمَا سَمِعَ الْأَعْرَابِيُّ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]؛ قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىٰ أَقْسَمَ.

وَحِينَمَا أَخْطَأَ إِمَامٌ فِي قِرَاءَةِ آيَةٍ؛ نَحْوَ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، قَرَأَهَا: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنۢ..﴾ (تَحْتِهِمْ) صَوَّبَ لَهُ خَطَأَهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ.

إِنَّ الْقُرْآنَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ؛ وَفَهْمُهُ وَفِقْهُهُ وَتَدَبُّرُهُ لَيْسَ صَعْبًا بِحَيْثُ نُغْلِقُ عُقُولَنَا، وَنُعَلِّقُ فَهْمَهُ كُلَّهُ بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، فَنُعَمِّمُ حُكْمَ الْأَقَلِّ عَلَىٰ الْكُلِّ؛ فَهَذَا مَفْهُومٌ خَاطِئٌ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّسْوِيفِ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ.

إِنَّ إِغْلَاقَ عُقُولِنَا عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ بِحُجَّةِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِهِ، وَالِاكْتِفَاءَ بِقِرَاءَةِ أَلْفَاظِهِ مَدْخَلٌ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ الْعَبْدِ؛ لِيَصْرِفَهُ عَنْ الِاهْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ.

وَإِذَا سَلَّمْنَا بِهَذِهِ الْحُجَّةِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ، وَالْمَنْطِقَ، وَالْحَزْمَ، وَالْحِكْمَةَ: أَنَّكَ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ مَعْنَىٰ آيَةٍ، أَنْ تُبَادِرَ وَتُسَارِعَ لِلْبَحْثِ عَنْ مَعْنَاهَا، وَالْمُرَادِ بِهَا، لَا أَنْ تُغْلِقَ عَقْلَكَ؛ فَتَقْرَأَ دُونَ تَدَبُّرٍ، أَوْ أَنْ تَتْرُكَ الْقِرَاءَةَ.

وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ الْخَاطِئَ صَارَ مُسَيْطِرًا عَلَىٰ مُعْظَمِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْقُرْآنِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا عَلَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُحَصِّلُ عِنْدَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْهِدَايَةِ وَلَا التَّأْثِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ عُدِمُوا الْفَهْمَ فِيهِ.

وَقَدْ تَسَلَّلَ إِلَىٰ نُفُوسِهِمُ اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ خَاطِئٌ: أَنَّ فَهْمَهُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْمُتَخَصِّصِينَ بِالنَّظَرِ فِي عُلُومِ اللُّغَةِ وَعُلُومِ الشَّرِيعَةِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ -كَمَا مَرَّ فِي أَنْحَاءِ التَّفْسِيرِ-، مِنْهُ: مَا يُعْلَمُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ، وَمِنْهُ: مَا لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلِهِ؛ لِذَلِكَ تَجِدُ الْعَامِّيَّ الْأُمِّيَّ -الَّذِي لَمْ يَثْنِ رُكْبَتَيْهِ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ، وَلَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالْعِلْمِ، وَلَا بِالْبَحْثِ عَنْهُ، وَإِنَّمَا آتَاهُ اللهُ فِطْرَةً سَوِيَّةً- إِذَا مَا سَمِعَ آيَاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ فَهِمَ كَثِيرًا مِنَ الْمُرَادِ، وَأَحْدَثَ عِنْدَهُ خُشُوعًا وَتَأْثِيرًا وَخَشْيَةً.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ بِفِطْرَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ، يُجْرُونَ ظَوَاهِرَ نُصُوصِ الصِّفَاتِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا؛ فَهُمْ فِي هَذَا أَمْكَنُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَالْمُؤَوِّلَةِ وَالْمُعَطِّلَةِ، الَّذِينَ حَفِظُوا مَا حَفِظُوهُ مِنَ الْمُتُونِ، وَقَرَءُوا عَلَىٰ تِلْكَ الْمُتُونِ مَا قَرَءُوهُ مِنَ الشُّرُوحِ وَالْحَوَاشِي، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ بِكُلِّ مَرْذُولٍ بَغِيضٍ؛ حَتَّىٰ تَأَوَّلُوا فِي كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَصَرَفُوهُ عَنْ ظَاهِرِهِ؛ فَحَرَّفُوهُ، وَعَطَّلُوا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ.

فَتَجِدُ الْعَامِّيَّ الَّذِي لَمْ يُحَصِّلْ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي حَصَّلُوهُ، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَإِنَّمَا آتَاهُ اللهُ فِطْرَةً سَوِيَّةً نَقِيَّةً؛ إِذَا قُلْتَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟

قَالَ لَكَ: الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ.

إِذَا قُلْتَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ٦٤]؟

قَالَ لَكَ: مَعْنَاهُ: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ.

فَيُجْرِي هَذِهِ النُّصُوصَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، وَلَا تُحْدِثُ عِنْدَهُ خَلَلًا فِي اعْتِقَادِهِ وَلَا تَصَوُّرِهِ، وَلَا يَقُولُ: إِنَّنَا إِنْ أَثْبَتْنَا ذَلِكَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَفَوَّضْنَا كَيْفِيَّتَهُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ نَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ شَبَّهْنَا اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِخَلْقِهِ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُصْلِحَ هَذَا الْخَطَأَ، وَأَنْ نَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْمَفْهُومِ الْمَغْلُوطِ، وَأَنْ نُنْشِئَ عَلَاقَةً مَعَ كِتَابِ اللهِ (ج).

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ: فَلَا شَكَّ أَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ، وَكَذَلِكَ مَا هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِنَ الدَّقَائِقِ وَالدَّلَائِلِ؛ فَذَلِكَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ عَالِمُهُ، فَنَكِلُهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ.

وَأَمَّا النَّظَرُ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِلتَّدَبُّرِ وَالتَّبَصُّرِ، وَالتَّعَقُّلِ وَالتَّفَهُّمِ: فَهَذَا -كَمَا مَرَّ عَنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ- وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ.

فَوَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَدَبَّرَ فِي آيَاتِ كِتَابِ رَبِّهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، عَسَىٰ اللهُ جَلَّوَعَلَا أَنْ يَجْعَلَ لِذَلِكَ مَرْدُودًا حَسَنًا فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ، وَعَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ؛ فَيُهَذِّبُهُ

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَيُصَفِّي مَا فِيهِ مِنَ الْأَكْدَارِ، وَيُنَقِّي مَا فِيهِ مِنَ الْأَدْرَانِ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ كَمَا أَرَادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْمُسْلِمِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

كَيْفِيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَعَنْ كَيْفِيَّةِ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَعَانِي الْقُرْآنِ؛ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَتَدَبُّرُ الْكَلَامِ: أَنْ يُنْظَرَ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، ثُمَّ يُعِيدَ نَظَرَهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ وَلِهَذَا جَاءَ عَلَىٰ بِنَاءِ (التَّفَعُّلِ)، -أَيِ: التَّدَبُّرِ-؛ كَالتَّجَرُّعِ، وَالتَّفَهُّمِ، وَالتَّبَيُّنِ.

وَيُسَمَّىٰ: اسْتِبْصَارًا، وَهُوَ (اسْتِفْعَالٌ) مِنَ التَّبَصُّرِ، وَهُوَ تَبَيُّنُ الْأَمْرِ وَانْكِشَافُهُ، وَتَجَلِّيهِ لِلْبَصِيرَةِ؛ وَكُلٌّ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لَهُ فَائِدَةٌ سِوَىٰ فَائِدَةِ الْآخَرِ:

فَالتَّذَكُّرُ: يُفِيدُ تَكْرَارَ الْقَلْبِ عَلَىٰ مَا عَلِمَهُ وَعَرَفَهُ؛ لِيَرْسَخَ فِيهِ، وَيَثْبُتَ، وَلَا يَمَّحِي، فَيَذْهَبَ أَثَرُهُ مِنَ الْقَلْبِ جُمْلَةً.

وَالتَّفَكُّرُ: يُفِيدُ تَكْثِيرَ الْعِلْمِ، وَاسْتِجْلَابَ مَا لَيْسَ حَاصِلًا عِنْدَ الْقَلْبِ.

فَالتَّفَكُّرُ يُحَصِّلُهُ، وَالتَّذَكُّرُ يَحْفَظُهُ؛ لِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ: «مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ؛ حَتَّىٰ نَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ».

فَالتَّفَكُّرُ وَالتَّذَكُّرُ: بِذَارُ الْعِلْمِ، وَسَقْيُهُ: مُطَارَحَتُهُ، وَمُذَاكَرَتُهُ: تَلْقِيحُهُ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مُلَاقَاةُ الرِّجَالِ تَلْقِيحٌ لِأَلْبَابِهَا»..». انْتَهَىٰ كَلَامُ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ.

وَمَا ذَكَرَهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- هُوَ مُقْتَضَىٰ كَلَامِ أَهْلِ اللُّغَةِ.

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «دَبَّرَ الْأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ: نَظَرَ فِي عَاقِبَتِهِ. وَاسْتَدْبَرَهُ: رَأَىٰ فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرَ فِي صَدْرِهِ، وَعَرَفَ الْأَمْرَ تَدَبُّرًا: أَيْ بِأَخَرَةٍ».

وَقَالَ الْفَيُّومِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَدَبَّرْتُ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا: فَعَلْتُهُ عَنْ فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ، وَتَدَبَّرْتُهُ تَدَبُّرًا: نَظَرْتُ فِي دُبُرِهِ، وَهُوَ عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ».

إِنَّ طَرِيقَ التَّأَثُّرِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: هُوَ التَّدَبُّرُ لِمَعَانِيهِ، وَإِدْرَاكُ مَرَامِيهِ، وَاسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ؛ فَيَتَأَثَّرُ الْقَلْبُ بِآثَارٍ مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْآيَاتِ، فَيَكُونُ لَهُ بِحَسَبِ كُلِّ فَهْمٍ حَالٌ؛ مِنَ الْحُزْنِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَغَيْرِهِ:

فَعِنْدَ الْوَعِيدِ وَتَقْيِيدِ الْمَغْفِرَةِ بِالشُّرُوطِ: يَتَضَاءَلُ مِنْ خِيفَتِهِ، كَأَنَّهُ يَكَادُ يَمُوتُ.

وَعِنْدَ التَّوَسُّعِ وَوَعْدِ الْمَغْفِرَةِ: يَسْتَبْشِرُ، كَأَنَّهُ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ.

وَعِنْدَ ذِكْرِ اللهِ وَصِفَاتِهِ: يَتَطَأْطَأُ؛ خُضُوعًا لِجَلَالِهِ، وَاسْتِشْعَارًا لِعَظَمَتِهِ.

وَعِنْدَ وَصْفِ الْجَنَّةِ: يَنْبَعِثُ بِبَاطِنِهِ شَوْقًا لَهَا.

وَعِنْدَ ذِكْرِ النَّارِ: تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ خَوْفًا مِنْهَا.

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاللهِ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَبْدٌ يَتْلُو الْقُرْآنَ يُؤْمِنُ بِهِ؛ إِلَّا كَثُرَ حُزْنُهُ، وَقَلَّ فَرَحُهُ، وَكَثُرَ بُكَاؤُهُ، وَقَلَّ ضَحِكُهُ، وَكَثُرَ نَصِيبُهُ وَشُغْلُهُ، وَقَلَّتْ رَاحَتُهُ وَبَطَالَتُهُ».

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتَحَدِّثًا عَنْ كَيْفِيَّةِ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: «أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَهُ بِالتَّفَكُّرِ فِي مَعْنَىٰ مَا يَلْفِظُ بِهِ وَيَتْلُوهُ؛ فَيَعْرِفَ مَعْنَىٰ كُلِّ آيَةٍ، وَيَتَأَمَّلَ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ، وَيَعْتَقِدَ قَبُولَ ذَلِكَ.

فَإِنْ كَانَ مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَىٰ؛ اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ؛ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، أَوْ عَذَابٍ؛ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، أَوْ تَنْزِيهٍ؛ نَزَّهَ وَعَظَّمَ، أَوْ دُعَاءٍ؛ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ».

وَقَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَنْبَغِي أَنْ يَشْتَغِلَ قَلْبُهُ فِي التَّفْكِيرِ فِي مَعْنَىٰ مَا يَلْفِظُ بِلِسَانِهِ، فَيَعْرِفَ مِنْ كُلِّ آيَةٍ مَعْنَاهَا، وَلَا يُجَاوِزُهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعْنَاهَا.

فَإِذَا مَرَّ بِهِ آيَةُ رَحْمَةٍ؛ وَقَفَ عِنْدَهَا، وَفَرِحَ بِمَا وَعَدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهَا، وَاسْتَبْشَرَ بِذَلِكَ، وَسَأَلَ اللهَ بِرَحْمَتِهِ الْجَنَّةَ.

وَإِنْ قَرَأَ آيَةَ عَذَابٍ؛ وَقَفَ عِنْدَهَا، وَتَأَمَّلَ مَعْنَاهَا، فَإِنْ كَانَتْ فِي الْكَافِرِينَ؛ اعْتَرَفَ بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ: آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَعَرَفَ مَوْضِعَ التَّخْوِيفِ، ثُمَّ سَأَلَ اللهَ أَنْ يُعِيذَهُ مِنَ النَّارِ.

وَإِنْ هُوَ مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا نِدَاءٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وَقَفَ عِنْدَهَا، وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: «لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ»، وَيَتَأَمَّلُ مَا بَعْدَهَا مِمَّا أُمِرَ بِهِ وَنُهِيَ عَنْهُ، فَيَعْتَقِدُ قَبُولَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَىٰ؛ اعْتَذَرَ عَنْ فِعْلِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهَ فِي تَقْصِيرِهِ، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

وَعَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَمْرِ أَهْلِهِ: فِي صَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ، وَأَدَاءِ مَا يَلْزَمُهُمْ فِي طَهَارَاتِهِمْ وَجَنَابَاتِهِمْ، وَفِي حَيْضِ النِّسَاءِ وَنِفَاسِهِنَّ.

وَعَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَقَّدَ ذَلِكَ فِي أَهْلِهِ، وَأَنْ يُرَاعِيَهُمْ بِمَسْأَلَتِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُحْسِنُ ذَلِكَ؛ كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ؛ تَذْكِيرًا لَهُ، وَتَأْكِيدًا لِمَا فِي قَلْبِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُحْسِنُ؛ كَانَ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لَهُ.

ثُمَّ هَكَذَا يُرَاعِي صِغَارَ وَلَدِهِ، وَيُعَلِّمُهُمْ إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيَ سِنِينَ، وَيَضْرِبُهُمْ إِذَا بَلَغُوا الْعَشْرَ عَلَىٰ تَرْكِ ذَلِكَ.

فَمَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ قَدْ قَصَّرَ فِيمَا مَضَىٰ؛ اعْتَقَدَ قَبُولَهُ وَالْأَخْذَ بِهِ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، وَإِنْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَقَدْ عَرَفَهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا مَرَّ بِهِ تَأَمَّلَهُ وَتَفَهَّمَهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، فَإِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ تَذَكَّرَ أَفْعَالَهُ فِي نَفْسِهِ، وَذُنُوبَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ؛ مِنَ الظُّلَامَاتِ، وَالْغِيبَةِ، وَغَيْرِهَا، وَرَدَّ ظُلَامَتَهُ، وَاسْتَغْفَرَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ قَصَّرَ فِي عَمَلِهِ،

وَنَوَىٰ أَنْ يَقُومَ بِذَلِكَ، وَيَسْتَحِلُّ كُلَّ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الظُّلَامَاتِ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ حَاضِرًا، وَأَنْ يَكْتُبَ إِلَىٰ مَنْ كَانَ غَائِبًا، وَأَنْ يَرُدَّ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَهُ مِنْهُ.

فَيَعْتَقِدُ هَذَا فِي وَقْتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ حَتَّىٰ يَعْلَمَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ وَأَطَاعَ، فَإِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ هَذَا؛ كَانَ قَدْ قَامَ بِكَمَالِ تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

بِهَذَا التَّدَبُّرِ تَفِيضُ الْعَيْنُ مِن الدَّمْعِ، وَيَوْجَلُ الْقَلْبُ، وَيَقْشَعِرُّ الْجِلْدُ؛ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ، وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

وَتَأَمَّلْ هَذَا الشَّاهِدَ؛ لِتَقِفَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُهَا، وَيَتَخَلَّقُ بِهَا:

فَعَنْ حُذَيْفَةَ -فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»-، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ

عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ﷺ..». وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

كُلَّمَا ازْدَادَ الْإِنْسَانُ تَأَمُّلًا فِي الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرًا؛ ازْدَادَ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَتَبَصُّرًا وَتَذَكُّرًا، وَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الْقُرْآنِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَكَانَ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- قَدْ تَعَرَّضَ لِأَذًىٰ عَظِيمٍ، فَسُجِنَ، وَضُرِبَ، ثُمَّ نَرَاهُ يَعْفُو عَنْ جَمِيعِ مَنْ ظَلَمَهُ، حِينَ تَدَبُّرِهِ لِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ!

فَهَذَا ابْنُهُ صَالِحٌ يَحْكِي عَنْهُ أَنَّهُ حِينَ خُلِّيَ عَنْهُ، فَصَارَ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ، وَوُجِّهَ إِلَىٰ الْمُطْبِقِ -وَهُوَ السِّجْنُ تَحْتَ الْأَرْضِ- فَجِيءَ بِرَجُلٍ مِمَّنْ يُبْصِرُ الضَّرْبَ وَالْعِلَاجَ، فَنَظَرَ إِلَىٰ ضَرْبِهِ، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ مَنْ ضُرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ؛ مَا رَأَيْتُ ضَرْبًا مِثْلَ هَذَا!!

لَقَدْ جُرَّ عَلَيْهِ مِنْ خَلْفِهِ وَمِنْ قُدَّامِهِ، ثُمَّ أَخَذَ مِيلًا -وَهُوَ: الْمِيلُ الْجِرَاحِيُّ، كَالْمِسْبَارِ-، فَأَدْخَلَهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْجِرَاحَاتِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لم يُنْقَبْ، وَجَعَلَ يَأْتِيهِ وَيُعَالِجُهُ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَ وَجْهَهُ غَيْرُ ضَرْبَةٍ، وَمَكَثَ مُنْكَبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ كَمْ شَاءَ اللهُ.

www.menhag-un.com

ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا شَيْئًا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَهُ، فَجَاءَ بِحَدِيدَةٍ، فَجَعَلَ يُعَلِّقُ اللَّحْمَ بِهَا، فَيَقْطَعُهُ بِسِكِّينٍ مَعَهُ، وَهُوَ صَابِرٌ لِذَلِكَ، يَجْهَرُ بِحَمْدِ اللهِ فِي ذَلِكَ، فَبَرَأَ مِنْهُ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَوَجَّعُ مِنْ مَوَاضِعَ مِنْهُ، وَكَانَ أَثَرُ الضَّرْبِ بَيِّنًا فِي ظَهْرِهِ إِلَىٰ أَنْ تُوفِّيَ.

قَالَ صَالِحٌ: وَدَخَلْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهُ -يَعْنِي: لِأَبِيهِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ-: بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَيْكَ، فَقَالَ: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؛ إِذْ لَمْ أَقُمْ بِنُصْرَتِكَ، فَقُلْ: لَا أَجْعَلُ أَحَدًا فِي حِلٍّ.

فَتَبَسَّمَ أَبِي، وَسَكَتَ!

وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: لَقَدْ جَعَلْتُ الْمَيِّتَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَرْبِهِ إِيَّايَ.

ثُمَّ قَالَ: مَرَرْتُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

فَنَظَرْتُ فِي تَفْسِيرِهَا، فَإِذَا هُوَ مَا أَخْبَرَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ الْحَسَنَ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، جَثَتِ الْأُمَمُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ نُودِيَ: أَلَّا يَقُومَ إِلَّا مَنْ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَجَعَلْتُ الْمَيِّتَ فِي حِلٍّ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا عَلَىٰ رَجُلٍ أَلَّا يُعَذِّبَ اللهُ بِسَبَبِهِ أَحَدًا؟!!».

مَتَىٰ تَدَبَّرَ الْمُؤْمِنُ الْقُرْآنَ حَقَّ تَدَبُّرِهِ؛ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ تَنْزِيلَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَىٰ الْحَوَادِثِ النَّازِلَةِ، وَالْوَقَائِعِ الْمُسْتَجَدَّةِ.

إِذَنْ؛ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ كَيْفَ نَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْ خِلَالِ طَرِيقَيْنِ: عِلْمِيٍّ، وَعَمَلِيٍّ.

فَأَمَّا الطَّرِيقُ الْعِلْمِيُّ: فَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَنْ يَعْرِفَ الْمُسْلِمُ قِيمَةَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَعِظَمَ مَكَانَتِهِ، وَكَثْرَةَ فَوَائِدِهِ، وَأَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ سَبِيلٌ إِلَىٰ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَطَرِيقٌ إِلَىٰ حَيَاةِ الْقُلُوبِ.

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَىٰ=فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ، وَخَلَاءُ الْبَطْنِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ، وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ.

إِنَّ الْمَحْرُومَ حَقَّ الْمَحْرُومِ: مَنْ حُرِمَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَأُغْلِقَ عَلَيْهِ فَهْمُ آيَاتِهِ، وَمَعْرِفَةُ مَعَانِيهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ مَعَهَا».

تَفَكَّرَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ فِي مَثَلٍ مِنْ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ؛ فَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ مَعْنَاهُ، فَجَعَلَ يَبْكِي؛ فَسُئِلَ: مَا يُبْكِيكَ؟

قَالَ: «إِنَّ اللهَ عز وجل يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَأَنَا لَمْ أَعْقِلْ هَذَا الْمَثَلَ؛ فَلَسْتُ بِعَالِمٍ، فَأَبْكِي عَلَىٰ ضَيَاعِ الْعِلْمِ مِنِّي».

فَهَذَا مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْعِلْمِيِّ؛ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

*** وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْعَمَلِيُّ؛ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَبِاتِّبَاعِ الْخُطُوَاتِ الْآتِيَةِ:**

١- الِالْتِزَامُ بِآدَابِ التِّلَاوَةِ؛ وَبِخَاصَّةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِخْلَاصِ، وَالطَّهَارَةِ، وَالسِّوَاكِ، وَالِاسْتِعَاذَةِ، وَاخْتِيَارِ الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ.

٢- تَفْرِيغُ الْقَلْبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ، وَالتَّخَلِّي عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ؛ وَبِخَاصَّةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَالْغَفْلَةِ، وَالْكِبْرِ، مَعَ الْعَمَلِ عَلَىٰ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَطَهَارَتِهِ عَنْ طَرِيقِ الذِّكْرِ، وَالتَّسْبِيحِ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ فُضُولِ الطَّعَامِ، وَالْمَنَامِ، وَالْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ، وَالْمُخَالَطَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ؛ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضُرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ، مِنْهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لَكَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَذَلِكَ أَنَّ تَمَامَ التَّأْثِيرِ لَمَّا كَانَ مَوْقُوفًا عَلَىٰ مُؤَثِّرٍ مُقْتَضٍ، وَمَحِلٍّ قَابِلٍ، وَشَرْطٍ لِحُصُولِ الْأَثَرِ، وَانْتِفَاءِ الْمَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ؛ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ بَيَانَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ، وَأَبْيَنِهِ، وَأَدَلِّهِ عَلَىٰ الْمُرَادِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: وَهَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: هَذَا هُوَ الْمَحِلُّ الْقَابِلُ؛ وَالْمُرَادُ بِهِ: الْقَلْبُ الْحَيُّ الَّذِي يَعْقِلُ عَنِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠] أَيْ: مَنْ كَانَ حَيَّ الْقَلْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَيْ: وَجَّهَ سَمْعَهُ، وَأَصْغَىٰ حَاسَّةَ سَمْعِهِ إِلَىٰ مَا يُقَالُ؛ وَهَذَا شَرْطُ التَّأَثُّرِ بِالْكَلَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: أَيْ: شَاهِدُ الْقَلْبِ، حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «اسْتَمِعْ لِكِتَابِ اللهِ وَأَنْتَ شَاهِدُ الْقَلْبِ وَالْفَهْمِ، لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا سَاهٍ.

وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْمَانِعِ مِنْ حُصُولِ التَّأْثِيرِ، وَهُوَ: سَهْوُ الْقَلْبِ، وَغَيْبَتُهُ عَنْ تَعَقُّلِ مَا يُقَالُ لَهُ، وَالنَّظَرِ فِيهِ، وَتَأَمُّلِهِ.

فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ-، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ -وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ-، وَوُجِدَ الشَّرْطُ -وَهُوَ الْإِصْغَاءُ-، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ -وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ- إِذَا وُجِدَ هَذَا وَحَصَلَ؛ حَصَلَ الْأَثَرُ، وَهُوَ الِانْتِفَاعُ بِالْقُرْآنِ، وَالتَّذَكُّرُ».

فَلَا بَدَّ مِنْ تَفْرِيغِ الْقَلْبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ.

وَكَذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ: تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

فَتَرْتِيلُ الْقُرْآنِ يُسَاعِدُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْآيَاتِ، وَفَهْمِ الْمَعَانِي.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً أُرَتِّلُهَا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ».

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلَيْنِ، قَرَأَ أَحَدُهُمَا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، وَالْآخَرُ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَحْدَهَا؛ وَزَمَنُهُمَا، وَرُكُوعُهُمَا، وَسُجُودُهُمَا، وَجُلُوسُهُمَا سَوَاءٌ.

قَالَ: «الَّذِي قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَحْدَهَا أَفْضَلُ».

وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَسْتَحِبُّونَ التَّرْتِيلَ فِي الْقِرَاءَةِ؛ لِيَتَدَبَّرَهُ الْقَارِئُ، وَيَفْهَمَ مَعَانِيَهُ.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ، فَيُرَتِّلُهَا؛ حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْهَا.

وَمِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْصِيلِ التَّدَبُّرِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ وَجْهِهِ: تَرْدِيدُ الْآيَةِ؛ حَتَّىٰ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ:** «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً»؛ أَيْ: لَيْلَةً كَامِلَةً، قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْآيَةِ، يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ أَصْبَحَ، كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْآيَةُ هِيَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وَقَامَ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ اللَّيْلَ، لَا يَقْرَأُ إِلَّا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُهَا، لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا.

وَعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّهُ كَرَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

وَمِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ: أَنْ يَتَفَاعَلَ التَّالِي لِآيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَعَ مَا يَتْلُوهُ، مَعَ إِظْهَارِ الْحُزْنِ وَالتَّأَثُّرِ أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ: الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ؛ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَىٰ اللهَ**».

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ:** «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ..». وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ سُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُسْتَحَبُّ السُّؤَالُ وَالِاسْتِعَاذَةُ وَالتَّسْبِيحُ لِكُلِّ قَارِئٍ؛ سَوَاءٌ كَانَ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ كَانَ خَارِجَ الصَّلَاةِ».

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَهِيَ مُعِينَةٌ عَلَىٰ حُدُوثِ التَّدَبُّرِ فِي عَقْلِهِ وَرُوحِهِ وَقَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّأَثُّرَ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ أَهَمِّ الْقَضَايَا فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ لِمَنْ يَنْشُدُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ؛ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَالِارْتِقَاءِ إِلَىٰ دَرَجَاتٍ عُلْيَا مِنَ الْإِيمَانِ.

وَاسْتِجْلَابُ التَّأَثُّرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ حُضُورِ الْقَلْبِ، وَإِصْغَاءِ السَّمْعِ، وَهَذَا التَّأْثِيرُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ؛ فَقَدْ أَثَّرَ فِي غَيْرِهِمْ، وَغَيَّرَ مَجْرَىٰ حَيَاتِهِمْ.

وَهَذِهِ صُورَةٌ لِهَذَا التَّأَثُّرِ الَّذِي حَظِيَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ (عَائِشَة بِرْجِتْ هُونِي)، إِذْ تَقُولُ: «لَنْ أَسْتَطِيعَ -مَهْمَا حَاوَلْتُ- أَنْ أَصِفَ الَّذِي تَرَكَهُ الْقُرْآنُ فِي قَلْبِي، فَلَمْ أَكَدْ أَنْتَهِي مِنْ قِرَاءَةِ السُّورَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي سَاجِدَةً لِخَالِقِ الْكَوْنِ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ صَلَاةٍ لِي فِي الْإِسْلَامِ».

لَقَدِ اعْتَنَىٰ الْعُلَمَاءُ بِكَيْفِيَّةِ التَّدَبُّرِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَالتَّأَثُّرِ بِهِ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ؛ لَكِنَّ الْغَايَةَ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الِاسْتِجَابَةُ للهِ ﷻ لِمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

عَنْ مُسْلِمٍ الْخَوَّاصِّ، قَالَ: «كُنْتُ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَلَا أَجِدُ لَهُ حَلَاوَةً، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: اقْرَئِيهِ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: فَجَاءَتْ حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ، ثُمَّ قُلْتُ لِنَفْسِي: اقْرَئِيهِ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنْ جِبْرِيلَ عليه السلام حِينَ أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: فَازْدَادَتِ الْحَلَاوَةُ، ثُمَّ قُلْتُ لِنَفْسِي: اقْرَئِيهِ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنَ اللهِ ﷻ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ؛ فَجَاءَتِ الْحَلَاوَةُ كُلُّهَا».

فَهَذَا الْفِعْلُ غَايَةُ التَّأَمُّلِ، وَتَأَمُّلُ الْغَايَةِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ؛ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضُرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ، مِنْهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ».

إِذَا حَصَلَ التَّأَثُّرُ فِي الْقَلْبِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَىٰ بَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ، وَرُبَّمَا تَأَثَّرَتِ الْعَيْنُ بِالْبُكَاءِ، فَحِينَمَا تَذْرِفُ دُمُوعَهَا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ؛ فَهَذَا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ عَلَىٰ حُصُولِ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَثُّرِ، كَمَا كَانَ يَقَعُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ، أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِحُسْنِ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ.

وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْإِقْبَالِ عَلَىٰ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ؛ حَمْلًا، وَفِقْهًا، وَتَدَبُّرًا، وَتَذَكُّرًا، وَتَفَكُّرًا، وَاسْتِبْصَارًا، وَعَمَلًا بِأَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابًا لِنَوَاهِيهِ، وَاتِّعَاظًا بِمَوَاعِظِهِ، وَانْزِجَارًا بِزَوَاجِرِهِ.

وَأَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ قَائِدًا لَنَا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَأَلَّا يَجْعَلَهُ سَائِقًا لَنَا إِلَىٰ النَّارِ، إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

www.menhag-un.com